محاضرة

تزكية النفس

فضيلة الشّيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ راجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسـوله صلَّىٰ الله وسلَّم عليه وعلَىٰ آله وأصْحابه أجمعين..

أمَّا بعدُ..

هـٰذه -أيُّها الإخوة- وقفة مع قول الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[الأعلىٰ]، ففي هـٰذه الآيـة بيـان أنّ من تزكّىٰ أفلح في دنياه وأخراه، والفلاح هو حيازة الخيْر في الدُّنيا والآخرة.

وهـٰذه الآية نظيرُها قول الله ﷻ في سورة الشَّمس مُقسِمًا علىٰ ذلك بآياته العظام ومخلوقاته الجسام ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[الشمس]، فأقسم الله ﷻ بأكثر من عشر آيات عظيمة ومخلوقات جسيمة أنّ من زكّىٰ نفسه أفلح ومن دسّاها خاب وخسر، ومعنىٰ ﴿دَسَّىٰهَا﴾ أي غمرها وحقّرها وطمرها بإيقاعها في الخسائس وحقائر الذُّنوب والمعاصي والآثام.

فتزكية النَّفس أمر عظيم ينبغي علىٰ المُسلم أن يُعنىٰ به عنايةً دقيقة.

وفي هـٰذا الباب -أيُّها الإخوة- أشير علىٰ عجل إلىٰ بعض القواعـد والضَّـوابط والأصـول المهمّـة في باب تزكية النَّفس أذكرها باختصار وبدون إطالة:

[القاعدة الأولىٰ]

التَّزكية بيد الله ولن يتزكَّىٰ إلَّا من زكَّاه الله

فالأمر لله من قبل ومن بعد، قال الله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٩]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[النور:٢١]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾[الحجرات].

وهـٰذا الأصل ينقلنا إلىٰ أصل ثانٍ مرتبطٌ به:

[القاعدة الثانية]

أهمية الدُّعاء في باب تزكية النَّفس

فإذا كانت التَّزكية بيد الله ولا متزكِّي إلا من زكّاه الله فما أحوج العبد وأشدّ افتقاره إلىٰ ربِّه ﷻ بأن يزكّيه، والدُّعاء -كما قيل- مفتاح كلِّ خير في الدُّنيا والآخرة.

وفي هـٰذا الباب ثبت في «صحيح مسلم» من حديث زيد بن أرقم أنَّ النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال في دعائه: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**».(١)

[القَاعدة الثالثة]

أساس تزكية النّفوس وعماد بنائها توحيد الله ﷻ

فالتَّوحيد هو الأساس الذي تُبنىٰ عليه التّزكية والقاعدة التي عليه تقوم، وهو لشجرة التَّزكية بمثابة الأصول للأشجار كما قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾[إبراهيم]، فشجرة التّزكية تقوم علىٰ التَّوحيد، وإذا انثلم التَّوحيد لا زكاة، كما أنَّ الشَّجرة لا قيام لها بدون أصلها، ولهـٰذا جاء عن عدد من المفسِّرين من الصَّحابة والتابعين في معنىٰ قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[الأعلىٰ]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾[الشمس]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[فصلت:٧]، أي لا يقولون: لا إلـٰه إلَّا الله، أي: لا يُوحِّدون الله، وذلك لأنّ توحيد الله ﷻ هو الأصل الذي تُبنىٰ عليه التَّزكية، فإذا فُقد التَّوحيد لا توجد زكاة في العبد، وأعماله كلّها تذهب هباءً منثورًا؛ لأن الشِّرك محبط للأعمال مبطلٌ لها.

[القاعدة الرَّابعة]

القرآن الكريم هو منبعُ التَّزكية ومعينها الذي لا ينضب

وكلَّما كان العبد مرتبطًا بهـٰذا القرآن قراءة وتدبُّرا وعملا فاز من التَّزكية بأعظم نصِيب.

ولهـٰذا قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[آل عمران:١٦٤] فبتلاوة آيات الله -جلَّ وعلا- علىٰ الناس تُزَكَّىٰ النُّفوس، فالقرآن هو كتاب التزكية ومنبعها، وكلَّما كان العبد قريبًا من هـٰذا القرآن حاز من التَّزكية بحسب قربه من كتاب الله.

---

(١) في كِتَاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَار، بَاب التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ (ح٢٧٢٢).

[القاعدة الخامسة]

لا زكاة للعبد إلا باتِّباع الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

وأمر تزكية النَّفس مسلَّم للرّسل عليهم صلوات الله وسلامه، فهم أئمة المتزكِّين وقدوة عباد الله، قد قال الله ﷻ في شأن إمام المرسلين وخاتمهم وسيِّد ولد آدم أجمعين -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب].

وفي هٰذا الباب أقول: كيف يُرام الوصول إلىٰ التَّزكية والقبول بغير اتِّباع الرَّسول ﷺ؟! هٰذا مُحال، كيف يَطلب الإنسان لنفسه تزكية دون أن يتَّبع النَّبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وقد أعطانا ﷺ في هٰذا الباب قاعدة جامعة وضابطا نافعا فقال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وقال: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**».(٢)

وهٰذا ينقلنا إلىٰ:

[القاعدة السَّادسة]

الطَّرائق التي يحدثها الناس ويزعمون أنها تُزكِّي النُّفوس فهي في الحقيقة لا تحقِّق لهم تزكية

بل لا تزيدهم عن التزكية إلا بُعدًا، فالطَّرائق المُحدثة، وكثيرًا ما تُخترع عبر التَّاريخ بدع وأهواء يدَّعي أربابُها ومحدِثوها أنها تزكِّي النفوس، وأنَّ النفوس إنَّما تزكو بها.

فهٰذا يدعو إلىٰ خَلوة في مكان مظلم ينقطع فيه الإنسان عن الجُمَع والجماعات والعلم والتّعلم ويردد كلمات تُملىٰ عليهم؛ بل أحيانا كلامًا لا معنىٰ له يردِّده أيامًا طويلة، ويزعمون أنّه بمثل هٰذه الخُرافات والضَّلالات يُزكِّي نفسه، ولقد تلاعب الشَّيطان بأقوام في هٰذا الباب تلاعبًا عجيبًا.

قد فصَّل في هٰذا الباب تفصيلا واسعا ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» وذكر في هٰذا الباب عجائب وغرائب من تلبيس إبليس علىٰ الصُّوفية، وكيف أنه أدخلهم في منزلقات خطيرة جدًّا من باب تزكية النفوس، وهي أعمال لا تزيد فاعلها عن تزكية النّفس إلا بُعْدًا.

---

(١) ذكرهُ البخاري (كتاب البيوع ، باب النجش) تعليقا ، و وصَلَه في كتابِ الصُّلْحِ (ح٢٦٩٧).

(٢) أخرجه النسائي (ح١٥٧٨)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الإرواء (ح٦٠٨)..

[القاعدة السّابعة]

أهمِّية الوسطية والاعتدال في باب التَّزكية

كما قال الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣].

وخيــــار الأمـــــور أوســـــاطها لا تفريطهـــــا ولا إفراطهـــــا

فالوسطيَّة في هـٰذا الباب وفي كل باب مطلوبة ولابد منها، فإذا دخل الإنسان في أبواب العبادات ليُزكِّـي نفسه، في باب الأخلاق، ليزكي نفسه عليه أن يكون في ذلـك وسـطا، والوسـطية تعنـي لـزوم الحـق؛ بـل يجمع الوسطية قول النبي –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «**سَـدِّدُوا وَقَـارِبُوا وَأَبْشِـرُوا**»(١) وخـذ مثـالا لـذلك يوضحه ويقرِّبه: رمي السّهم إلىٰ المرمىٰ. ما هو السّداد في رمي السهم إلىٰ المرمـىٰ؟ أن يصـيب المرمـىٰ بعينه، والمقاربة أن يرمي السهم إلىٰ جهة المرمىٰ فيكون قريبًا منه؛ لـٰكن من لا يأخـذ السـهم أصـلا ولا يرميه، أو يأخذ السهم ويعطي المرمىٰ ظهره ويرمي إلىٰ جهـة أخـرىٰ، هـل هــٰؤلاء أهـل سـداد أو أهـل مقاربة؟ لا، فأهل السّداد والمقاربة الذين يصيبون السنة أو الذي يعمل جاهدا ليصيب السنة فيكون قريبـا منها، ولكل منهما بشارة قال: « **سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا**»، فأهل السّداد لهم بشارة، وأهل المقاربـة أيضـا لهم بشارة.

أمّا الذي يدير للسُّنّة ظهره ولا يرفع بالسُّنة رأسًا ولا يبالي بها؛ بل يتّبع هواه ويبتعد عن سـنة النَّبـيّ ﷺ وهُداه، فهـٰذا ما أبعده عن الوسطية، فالتزكية وسطية واعتدال.

[القاعدة الثَّامنة]

التَّزكية تخلية وتحلية ولا يكون العبد متزكِّيا إلا بهما

ومن يرجع إلىٰ أصـل مـدلول هــٰذه الكلمـة في اللُّغـة، وكـذلك معناهـا في الشَّـرع في ضـوء دلالات النُّصوص يدرك ذلك.

فالتَّزكية تخلية وتحلية تخلية للنَّفس من الرَّذائل، وتحلية لها بالخيرات والفضائل، هـٰذه التَّزكية.

وأصل معناها في اللُّغة: النَّماء والطَّهارة، النَّمـاء أي الزِّيـادة في الخَيْـرات، والطَّهـارة أي: التخلِّـي مـن الآفات والسيئات والمنكرات.

يدلّ علىٰ أنّ التَّزكية تحلية بالفضائل الآية التي بـدأنا بهـا وهـي قـول الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ

(١) أخرجه البخاري (ح٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها.

ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾[الأعلىٰ] فالذِّكر والصَّلاة وعموم الطَّاعات تُزَكِّي النُّفوس، كل طاعة يتقرَّب بها العبد إلىٰ الله ﷻ فهي تزكية لنفسه، ويدلّ علىٰ أنَّ التَّخلِّي عن المنكرات والبعد عنها داخل في باب التَّزكية قول الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾[النور] فبُعد الإنسان عن ما نهاه الله عنه هٰذا داخل في باب تزكية النَّفس، ولهٰذا قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ .

أختم بـ:

[القاعدة التَّاسعة]

أهمِّية تذكُّر اليوم الآخر وأن يكون نصْب عيْني الإنسان

كلَّما كان العبد علىٰ ذكر لهٰذا اليوم يوم الحساب، يوم الوقوف بين يدي الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أعانه ذلك علىٰ تزكية نفسه، قد مرّ معنا فيما سمعناه من آيات قول الله ﷻ عمّن يُؤْتَوْنَ كتبهم باليمين: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾﴾[الحاقة] فكلَّما كان العبد مستصحبًا هٰذا الظَّن المبارك والاعتقاد العظيم وأنّه سيحاسب وأنّه سيلاقي الحساب من سيقف بيْن يَدي الله -جلّ وعلا-، وأنَّ الله سيحاسبه علىٰ أعماله التي قدن في هٰذه الحياة كلَّما أراد أن يخطو خطوة لعمل لا يرضي الله تذكَّر أنَّ الله سيحاسبه علىٰ هٰذا العمل، وأنه سيقف أمام الله -جلَّ وعلَا- ويُجزىٰ بما قدَّم، فيمنعه ذلك ويحجزه بإذن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عن الرَّذائل ويسوقه إلىٰ الفضائل.

ولهٰذا قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾[الحشر:١٨] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[التحريم] ، ومن أواخر ما نزل علىٰ نبيِّنا ﷺ بل قيل: هو آخر ما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾[البقرة] فإذا كان العبد علىٰ ذكر لهٰذا اليوم وهٰذا القيام بين يدي الله ﷻ فإن هٰذا بإذن الله ﷻ يحفِّزه إلىٰ التحلِّي بالفضائل والتخلِّي عن الرَّذائل وهٰذه هي حقيقة التَّزكية.

اللَّهم آت نفوسنا أجمعين تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاهاK أنت وليها ومولاها.

والله أعلمK وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله .

۞۞۞۞